الى الاعتقاد بأن ذلك جاء استجابة لرغبة في نفس غروسمان، ككاتب؛ كما انها قد تكون رغبة من الكاتب لتضخيم شخصية حلمي واعطائها ابعاداً اخرى، قد لا تكون متوفرة في الواقع الذي يعالجه الكاتب.

في رأيي، فشلت شخصية حلمي في تمثيل أي شيء؛ كما انها لم تنجح في تمثيل نفسها أيضاً، فبدت مؤسطرة أكثر من اللازم ومبالغاً بها، مع ان الارضية التي تعيش عليها والتي خلقها غروسمان (معرفته بالمنطقة وبتفاصيل الحياة) كان من الممكن ان تخلق شخصية اكثر تكاملاً، وأقل قولبة، وأكثر اقناعاً. هذا من ناحية، اما من الناحية الاخرى، فان اسطرة حلمي قد يكون مبعثها القلق وعدم القدرة على الامساك بشذرات الواقع المرعبة: من هذه الناحية، تنجح شخصية حلمي في عكس مخاوف الكاتب الصميمية. فالاسطورة أقوى من الانسان. لذلك، كانت، على هذا الصعيد ـ صعيد القوة ـ ، لصالح العمل عامة. وحين نرى ان اوري يلجأ الى حلمي ـ ربما بحثاً عن اب بديل من أبيه ـ فهو يلجأ الى اسطورة اكثر مما يلجأ الى شخصية عادية طبيعية: فالواقع يدفع باوري الى البحث عن شخصية اسطورية لتحميه من كل ما يحدث معه. وهو لا يستطيع ـ بضعفه الانساني ـ مجابهة الواقع. هنا تتحول اسطرة شخصية حلمي الى امر ايجابي: الاسطورة تنتصر على الانسان الشرير (مقتل كاتسمان) وقد تحمي الضعيف (مثل اوري). وبناء على ذلك، تتحول شخصية حلمي الى شخصية اسطورية، مختلفة وغير حقيقية، وغير ملموسة، وتعاملنا معها يجب ان ينطلق من كونها اسطورة، او نوع من النمط الاولي، او اللاوعي الجماعي اليونغي (نسبة الى يونغ)، الذي يجمع، في طياته، الكثير من الامور والترسّبات وما اليه. لهذا نرى ان نجاح شخصية حلمي المؤسطرة هو في تفعيلها في النهاية، وفي تحريك هذا اللاوعي الجماعي ليفعل، وليؤكد أهمية التذكير بالفظائع التي يرتكبها الاحتلال، وبقدرة الانسان الذي يقع تحت الاحتلال على ان يحرّك وان يغير هذا الواقع اللاانساني.

العنوان؛ الدلالة

ثمة دلالة رمزية في عنوان الرواية «ابتسامة الجدي» يجدر الاشارة اليها. فالعنوان يرتبط بقصة ابراهيم في سفر التكوين، الذي امتحنه الله بابنه، ففعل حسبما طلبه الله منه، لكنه يجد جدياً في النهاية بدلاً من التضحية بابنه[٦]. قصة ابراهيم الواردة في التوارة هامّة لفهم المدلول الذي يكمن في العنوان. فكاتسمان يطلب من اوري الانضمام اليه والعمل معه كمساعد في الضفة الغربية. كاتسمان يستغل براءة اوري واستعداده للتضحية. واوري، بدوره، يلعب في الرواية دور البريء الذي تعلو وجهه ابتسامة ساذجة وبسيطة الى ان يصاب بانيهار.

يستغل غروسمان القصة التوراتية المألوفة لكي يقدم موازياً (مشابهاً) لها في الحياة اليومية الحالية. وبالطبع، ثمة اختلاف بين تطور القصتين: ابراهيم، في النهاية، يأمره الله بألّا يضحي بابنه ويظهر له الكبش؛ اما كاتسمان، الذي يحاول استغلال اوري، يكون هو الضحية، لكن الجدي (اوري) يظل حياً.

على أي حال، ينجح غروسمان في الايحاء بالعلاقة القائمة بين العنوان وما جاء في التوراة، ويظل استغلاله للقصة موفّقاً. فالاحداث، في الرواية، تثير تداعيات شتّى، وخاصة الثمن الباهظ الذي يدفع مقابل هذا الاحتلال الغاشم.

الفساد التعسفي والتفسخ

لا تقترح رواية غروسمان حلاً سياسياً شعارياً (مع انها، في احيان، كانت تسقط في اطار